معصومة علي المطاوعة

لن يعيد التاريخ نفسه!

قصص من الواقع

لن يعيد التاريخ نفسه!
قصص من الواقع
معصومة المطاوعة

الطبعة الأولى
مملكة البحرين – 2002

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

رقم الإيداع بمكتب حماية حقوق المؤلف: 2002/839م
رقم الإيداع في المكتبة العامة: 3363 د.ع./2002م
رقم الناشر الدولي ISBN: 6-62-02-99901

تصميم الغلاف: القسم الفنّي بمؤسّسة الأيام
الطباعة: المطبعة التجاريّة–مؤسسة الأيام للصحافة والنشر والتوزيع

إهـداء

إلى كل من أحب..

فأتحسّس السعادة في حبهم
وأغمض جفني عن إغفاءاتهم
لأجد السعادة بقربهم

ولا أجدها إلاّ برؤيتهم سعداء

مقدمة

كان الإنسان.. ولا يزال.. وسيبقى.. السرّ المميّز في هذا الوجود..

ما هي النواة؟

النواة هي مركز التحكّم في الخلية، وتحتوي على أحماض نووية تحمل الصفات الوراثية للكائن الحي.. لكن..

ما هي الخلية؟

الخلية هي جدار كروي الشكل أملس يحوي النواة محاطةً بسائل يسمى السيتوبلازم، تنتشر فيه مواد غذائية وفجوات هوائية، وهي بمجموعها تكون الجهاز..

وما الجهاز؟

هو مجموعة من الخلايا المرتبطة بعضها بعضاً لتؤدي عملاً وظيفيًا معينًا في الكائن الحي..

والكائن الحي المسمى بالإنسان، ليس سوى مجموعة من الأجهزة العضوية المتمثّلة في جسده، وشبكة من الأعصاب المركزيّة يتحكّم بها عقله.. ولكن..

كينونة النفس البشرية.. كيف نفسّرها بعيداً عن تلك المصطلحات العلمية القاسية، إن كان الإنسان تركيبةً من عقلٍ وجسدٍ وروح؟!

منذُ أولِ لحظةٍ أبصر فيها الإنسان، وهو يبحث على هذه البسيطة عن ماهيته وسبب وجوده، ومدى فاعليته في تغيير ما في نفسه وفيمن حوله، فنجد أدقّ وأصعب الميادين التي خاضها العلماء والفلاسفة والكتّاب كان ميدان

تحليل النفس البشرية، من أجل محاولة فهمه في مزاجه وصراعه الذي يصعب إخضاعه لقواعد ثابتة، لأن تصرّفاته مجرّد ردود أفعال عن شخصيات لها خصائصها المرتبطة بالخبرات الحياتية والتجارب الذاتية.

ولو اعترفنا بأن تطور العلوم والمعارف مقياس للتقدم والحضارة، فبمقدورنا القول بأن تفسير المظاهر النفسية وتصنيف أشكالها بحاجة إلى مزيدٍ من البحث والاستقصاء..!

وعندما نحاول طرح قضايا فكرية تتنازع الإنسان في شخصه وفكره، نجد عقر داره خير مثال، إذ مهما اختلفت الشخصيات والأزمنة، والأعمار والأمكنة، فالآلام واحدة ونبض الحياة واحد.. ولعل هذا هو المنطلق الذي جاء منه هذا الكتاب...

ولو أمعنّا النظر بأعيننا المجرّدة، فأبعدنا تلك العدسات الملوّنة أو النظّارات السوداء التي ترينا العالم بلون واحد وملامح متشابهة.. وأَحْسَنَّا الإصغاء بآذاننا الحسّاسة، فأبعدنا تلك السمّاعات الصغيرة المسمّاة بـ " الهدفونات " المحشوّة بالكلمات التافهة المخلخلة.. لرأينا الناس ألواناً وأجناسا، ولسمعنا أصواتهم بكاءً وضحكات..

فلابد في ركنٍ ما عِظَةٌ ولَّدَتها صرخات رجل.. وفي ركنٍ آخر حكمةٌ أوْجَزتها آهات امرأة..

ففي كل زاويةٍ من هذا العالم نجد قصةً أعلامها إنسان وإنسان.. ولو استمررنا نفتّش يمنةً ويسرة، لوجدنا الأرض مسرحاً كروياً وعليه نحن "الممثلون"!

فلو خفّفنا أحكامنا على الآخرين وتريّثنا قبل اتخاذ القرارات، نكون قد

قضينا على آفةٍ بدأت تثبّت أقدامها على هذه الأرض، وهذا ما أسعى وغيري لتحقيقه من خلال بعض الوقفات..

ولما يُسأل المرء عن قصّة حياته، نجده في التعبير عن آلامه أقرب، لربما ذلك جزءٌ من كُنهه الذي لا يتغير إلاّ مع الصدمات.. لذا تناولتُ في هذه المجموعة شخصيّات تتحدث بلسان نفسها، لتدوي أصداء كلماتها فيسمعها كل إنسان، وجاءت الكلمات سهلةً سلسة، لتناسب القارئ العام من كل سنٍّ وجنس، فتصله بالمعنى المراد، بعيداً عن بهرجة الأسلوب واصطناع الإحساس..

فإن جاءت هذه الكلمات تسدُ فراغاً وتروي عطشاً فذلك حسبي.. وإلا فإني أسأل المولى عزّ وجل أجر ما سعَيتُ إليه.. وليوفّق الله كل عملٍ فيه خيرٌ لهذه الأمة..

المؤلفة

الماضي العبوس

كانت إن صاح جرس الباب زحفت للهاتف.. وإن رفعت
السّماعة أمسكتها بالمقلوب..!

أذكر، ويا ليتني لم أذكر، شيئًا بدأت أتذكره..

في لحظاتٍ تُذكّرني، عندما أرى ما يُذكر أَتَذكّر، أو أسأل فأجيب أَتَذكر، ولساني يتمنى أن يقول لم أعد أذكُر شيئا..

لحظات عشتها في واقعي، رأيتها، أحسستها بلمساتها الحارة، التي كانت تلامسني باستمرار، تخدعني بقولها "سأدفئك"، وحين اقترب منها لا أرى غير حروق تتركها بعد ملمسي، وأنا أبكي وأقول: "لا.. لا أريد، ومستحيل، ولا أدري!.."

هكذا كنت أبدأ دائماً في ذلك الماضي العصيب، ولكن إن أردت أن أنتهي فلا أرى سوى دموع تسري على حروقي فتغسلها، بينما هي ليست بحاجة إلى غسل بل إلى تطهير..

والآن لم يبق منها غير ذكريات تمر علي من لحظةٍ لأخرى، يومياً أو أسبوعياً، أو حتى لو بالشهر مرة، لكن تمر، تمر باستمرار وكأنها درس يجب أن أتلقاه بين الحين والحين، درس مرُّ المذاق صعب الحل، فلا يتركني إلا برأسٍ موجعٍ، ونفسيّةٍ مرهقة، وجسمٍ تأكل مفاصله بعضها البعض، خوفًا أن يمرَّ عليها وقتٌ كذاك من جديد..

ذكرياتٌ تلامسني كما لو تصافح اليدُ يداً، أحسها فأراها باردة،

باردةً جداً، فما إن تقترب من مخيلتي حتىّ تنتابني قشعريرة، ويبدأ شعر جسمي كله بالوقوف، وكأنه يَشتُمها مُلقِيًا التحية، وما إن تقترب أكثر حتى أشمَّ ريحها، تلك الريّح الكريهة التي كانت تلازمني باستمرار في ذلك الماضي العبوس.. وما كانت ريحُ هذه الذكرى إلا ريح المستشفى..

هكذا كانت القصة...

في أحد الأيام، بينما كنت جالسة مع أفراد عائلتي نتبادل الحديث والضحك، تغمرنا سعادة الاجتماع، بدأ سوء الفهم بيني وبين أحد إخواني، وبدأنا نرمي بعضنا بالكلمات، فأقول كلمة فيقول لي عشراً، ويرميني بكلمة فأرميه بجملة، وهكذا..

كان ذلك الشيء عادة بالنسبة لنا، فأنا وأخي الذي يكبرني بسنة واحدة لا نتفق بالرأي أبداً، بالرغم من اتفاقنا في الكثير من الأمور الأخرى، لذا ما كنا نبدأ الحديث حتى ننتهي بالشجار.. وما كان هذا الشيء بالجديد، بل غالبا ما كُنّا نتسلى بتحدّي وعناد بعضنا فيمن يكسب الحديث، ويملك الرأي الصواب.

ولكن.. لم نكن ندري ما الذي يخفيه لنا القدر بين صفحاته!؟

فبينما كنت أتشاجر معه، دخلنا بالجَدّ الذي خفت منه كثيراً، فلم يكن مني سوى الصمت، فأنا لا أحب أن أغضب أخي، لكنّ الحديث كان طائلاً جدًا، فقد رأيته يرميني بالكلمات من أعماقه، ورأيت في

عينيه حقدًا وغضبًا شديدًا لم أقصد إيصاله إليه، وإن كنت قد فعلت!

فلقد أخذَ كلماتٍ قلتها وقت غضبي على محمل الجديّة، وبدأ يرميني بالسوء، وما إن فعل حتى بدأت بالبكاء كالعادة عندما أُهزَم، ولا يكون لديّ ما أقول، و لكني لما بكيت هذه المرة، لم يكن لأني هُزِمت، بل لأني سمعت من نفسٍ عزيزةٍ أحبها كلماتٍ جرحتني!

قمت من المجلس باكية، حاملةً في قلبي ألمًا وجرحًا كثير النزيف، وعيني مليئةٌ بالدمع، أجري ولا أدري ما أمامي، فكلّ قصدي الوصول لغرفتي لأندب حظي.. ولكني لم أصل.. فهنا كانت الحادثة..!

فبينما كنت أحاول النزول من على الدرج، زلّت قدمي على درجاته الأخيرة، وخالجني خوفٌ عميق من الوقوع كاد أن يسكت قلبي، لكنني وقعت وارتطمت بالحائط حيث تزلزل وقتها كياني، وأُغمي عليّ، بعد أن صرخت صرخةً أوصلت دويها إلى أسماع أفراد عائلتي الذين همّوا إليّ وحملوني إلى المستشفى..

وهناك وبعد عدة ساعات، فتحت عينيّ، وتمنيت وقتها لو لم أفعل! فتحتها لأرى حولي أناسًا أجهلهم، ولحظاتٍ أجهل ما الذي حملني إليها.. هنا كان الماضي الكريه الذي ودّعته..

فكما قال الطبيب، الخوف الشديد والضربة التي تلقيتها سببت ارتجاجًا في المخ، مما أدى إلى إعادتي من جديد تمامًا إلى الصغر، وقال بأنها مجرد سحابة سوداء عابرة على المخ، أدّت إلى إيقاف

مركز الذاكرة، وما إن تنقشع حتى يعود كل شيء إلى كيانه إن شاء الله، وأكد بأنها لن تدوم طويلا في حالتي مع التذكير، ومع بعض الكلمات الأخرى، شرح ذلك إلى أهلي الذين صُعِقوا بمثل هذا الخبر الغريب، لكن تأكيد الطبيب بأن ذلك لن يدوم طويلاً أراحهم قليلاً، فقد قال بأن ذلك عائد إليّ، وإذا ما أردت أنا العودة إلى واقعي عدت إليه بسهولة، حتى في يوم واحد، فهو مجرد فقدان مؤقت للذاكرة وسيعود.

وبعد إصرار عظيم من أهلي على تحملهم مسئولية وقوع أي ضرر، تم نقلي إلى المنزل شرط جلبي للمستشفى كل يوم لمتابعة العلاج، فكل شيء كالنبض والضغط كان تقريباً بخير، غير ذاكرتي، أما عدم قدرتي على الحركة بانتظام فربما كان بسبب الخوف الذي كان في قلبي، بينما كل أعضائي كانت سليمة معافاة.

فهكذا فتحت عينيّ لأرى نفسي في مكان غريب، مع أناس غرباء، غير قادرةٍ على تحريك غير نظراتي.

وفي المنزل حاول أهلي تذكيري كثيراً بما جرى، لكني لم أكن لأفهم أو أتكلم ولا لأبكي، حتى أني أجهل إلى اليوم ما كان بي وقتها، ولا أذكر إلا شعوري بالحيرة وعدم التفهّم.

جُلتُ في أرجاء المنزل فأحسست بأن المكان ليس غريباً، شعرت بأنه منزلي، لكني لم أستطع الحكم على شعوري، واستمر الأمر على ذلك أياماً تمكّنت فيها من تحريك يديَّ وقدميّ، وأذكر تمامًا بأن قدمي

لم تكن منتظمة السير، ويديّ كثيرًا ما كانت تنضم من شأنها إلى صدري بغير أمرٍ ألقيه إليها لفعل ذلك، بينما لساني لم يكن قادرًا على لفظ أكثر من بضع كلمات.

لا أصدق إلى اليوم بأني جهلت كلَّ شيء، فما كان الطعام يوضع في فمي حتى أسحبه بيدي وأرميه، أو أحفظه بالداخل دون علمي بأنه وضع كي أبلعه..! شعرت بألمٍ في معدتي، ولم أكن أعلم بأن السبيل لإيقاف هذا الألم هو بلع ما كان يوضع لي في فمي، بالإضافة إلى خوفي الشديد من الوقوف تحت الماء وقت الاستحمام..!

في البداية اضطرّ أهلي لنقلي طويلاً يوميًا إلى المستشفى لأتلقى طعاما كيميائياً عن طريق الإبر، والجلوكوز، لكن الأمر تحسّن بسرعة حالما تعلمت الأكل والشرب وتجرّع الدواء، واستعمال كل الأجهزة في المنزل من تلفاز ومذياع وهاتف وغيره.

وفي خلال أيامٍ معدودة، تذكرت الكثير، ميّزت أهلي ونواديتهم، وعرفت اسمي وكل شيء في حياتي وذكرياتي.

لكن ظلّت المشكلة قائمةً في عدم قدرتي على النطق السليم، والتحكم بالأوامر التي ألقيها على المخ، فقد كنت أستطيع الحديث، وأدرك معنى كل كلمةٍ وشيء، لكني كنت ألفظ حروفًا وأبلع الأخرى، ولم يكن أسلوبي مرتبًا كما في الحقيقة، إذ كنت أؤخر كلماتٍ يجب تقديمها، وأحذف كلمات لا بد منها في المؤخرة، مع لحن يملأ

الكلمات كلحن الأطفال.

أما التحكم في أفعالي فقد كان نادراً، فكنت أضحك وقت البكاء والدمع في عيني، وأبكي لو رأيت أحدهم يضحك، ولا أدري لماذا!!

لا أدري إن كنت قد أحسست كل ما كتبت، وإن كنت أذكر بأني فعلت كلَّ ما ذكرت، أو أني أكتب ما قيل لي بأني قد فعلت.. فعلا لا أدري! ولكني متأكدة من شعور كان ينتابني وقتها وهو الخوف.. الخوف من نظراتٍ ربما لم أكن أحبها، لكني لم أكن قادرة على التعبير، وخائفة من عدم القدرة على القيام بشيء أريده، وبالأخص العودة إلى ما كنت عليه ومثلما كنت، أو ربما إحساسي بأني كالمعدمة كان يضايقني..!

وبعد أربعةِ أسابيع تقريبا من ذلك عادت الأوضاع إلى ما كانت عليه تقريبا، فمن الخارج أصبحت كما كنت تماماً، فتصرفاتي وكلماتي تمكنت من السيطرة عليها، بل إني تمكنت من السيطرة على كل أعضاء جسمي.. ولكن ما كنت أخشاه قد حصل..

لم أعد كما أنا في الطباع أبداً، فقد اعتراني انطباع غريب جدًا بالوحدانية والانعزال مع كثير من الانفعالات اللاإرادية، والتي كانت بغيرِ مسببات أو لأسبابٍ تافهة.

فكنت أشعر بآلام لا وجود لها، وأتوهم أصواتاً لا مصدر لها، وأكسر الكثير من الأشياء التي أمامي، والتي كانت تثير غضبي ولا

أدري لماذا..!؟ أو كيف..!؟ وأحياناً أقول وأفعل أشياءَ أنسى بعد بضع دقائق أني قلتها أو فعلتها.. ودخلت العلاج مرةً أخرى.. ولكن هذه المرة العلاج النفسي والعصبي..

حاول أهلي أخذي للخارج لكنهم عدلوا عن ذلك، خوفا من قول الطبيب بأن تغيير الأجواء ووضع الضواغط على نفسيتي الضعيفة قد يؤثر سلباً في العلاج لذا لم يكن غير الصلاة والدعاء..

حاولت كثيرا مساعدة نفسي، وضبط أعصابي لكني لم أستطع النجاح في كل شيء، لربما بسبب التعب والخوف، والمشكلة بأني أجهل سبب انفعالي والذي كان غالباً بسبب سماع الأصوات كحركة المرور، صوت سيارات الإسعاف، بكاء أو صياح أي أحد بصوت عال، وأحيانا عند رؤية الباصات الكبيرة، أو بعض النظرات، وما أن حاول أحدهم محادثتي أو إقناعي حتى أشرع في البكاء حتى الغثيان، فلا أرى نفسي إلا في المستشفى متشنّجة البدن باكية العينين.

استمررت على ذلك خمسةَ أشهرٍ، زرت خلالها المستشفى من وقت لآخر خاصة بعد أن فتحت المدرسة أبوابها، فكان لها تأثير عظيم على أعصابي، فما كنت لأركّز في شيء أو أن أكثر من الدراسة حتى أحسست بأن عقلي ثقيل مشحون بالكلمات، فيبدأ ألم فظيع في رأسي وكأنه سينفجر، فأبدأه وأبكي حتى أغلق عيني وأفتحها في المستشفى برغم كل أنواع العلاج والأدوية التي كنت أتعاطاها

باستمرار.

وبعد تلك الفترة العصيبة عدت إلى ما كنت عليه من قبل، عدت لنفسي وأهلي وصديقاتي فرحةً مرحة، وأنا أحمل في مذكراتي من الصفحات ما أكره أن أقرأ، وفي جسمي من الجروح ما أكره أن أرى.. ولا أدري كيف عشت تلك اللحظات أو حتى كيف خرجت منها، فلِيَ ذلك حياة جديدة بعد موت..

ولا أدري إن كنت قد عشت تلك اللحظات بشخصي أنا ونفسي أنا، أم بالشخصية الأخرى التي لا تحمل اسمي ولا ذكرياتي وحياتي، ولا أدري إن كنت أنا حقًا من صارع لأجل الحياة من جديد، أم شخصاً آخر كان في صورتي حلّ مكاني وأنا كالميتة، وصارع بدلاً عني، مراعياً ضعفي وقلة حيلتي وأعادني للحياة، وما إن عدت حتى غادر بعيداً وإلى الأبد، ولم يَبْقَ منه سوى ذكرياتٍ له ولِمَ فعل، قيلت لي بواسطة أهلي..

سبحان الله الذي إن شاء فعل، والحمد والشكر إليه الذي أعادني لما كنت عليه دون إعاقةٍ أو خلل، ولأهلي الذين صبروا وتحملوا حتى تمكنت من العودة إلى ما كنت عليه، ولصديقاتي اللواتي عملن على زيارتي باستمرار وتذكيري، وإسعادي، وبعثن فيَّ الأمل بأن أعود لهن كما كنت، وأخيراً لمدرستي ومدرّساتي اللواتي لعِبنَ آخر دورٍ معي في هذه المسرحية التي حملت بطولتها ومثّلتها في إحدى سنواتِ عمري..

وأعود لنفسي من جديد لأسألها إن كانت تصدق بأنها يومًا كانت إن صاح جرس الباب زحفت للهاتف، وإن رفعت السماعة أمسكتها بالمقلوب..!

لم يكن يعجبني.. ولكن...؟!

ما الحياةُ إلاّ لعبةٌ.. إمّا نربح لنكون أو نخسر لننتهي..

تعجبني الشمس وضياؤها.. القمر ونوره.. النجم وسطوعه.. تعجبني الحياة بعضها.. من كلمات.. وصور.. ولحن.. جميل أن نرى الأرض تعمرها الخيرات.. تكسوها الخضرة.. وتغني لها الطيور.. ألحانا.. فترقص الزهور..

هكذا اخاطب نفسي دائماً.. لعلّي أجد في الحياة ما أريد.. وما يريد كل امرئ من كل جميل.. فليس كل جميل محبوباً.. ولكن كل محبوب جميل..

فإننا على هذه الأرض نحب الخير ونعمل الشر.. نأكل الثمر ونحرق الشجر.. نشرب الماء وندفن البحر.. ندعو الفرج في الضرّاء وننسى الشكر في السرّاء..

نكره التّضاد ونعيش المتضاد..

فما الحياة الاّ مسرح وعليه نحن الممثلون..

وما الحياة إلاّ لعبة إما أن نربح كي نكون.. أو نخسر كي ننتهي..

في أرضنا تحيا الكائنات لأنها أجبرت على البقاء.. فينا من أحب ذلك فعاش بقلبه وروحه.. ومنّا من كره ذلك فبات يحيا كالدمى

المتحركة.. التي ما تحرّكت الاّ بفعل فاعل لولاه.. لظلت كالخرق البالية.. نعيش.. ومن حولنا نبحث أسباباً للبقاء.. فنرى قلّ ما نرى ما يعجبنا.. ونرى أكثر ما نرى ما لا يعجبنا..

ويعجبني أو لا يعجبني.. كذلك تظل المسألة قائمة..!

ولا عجب في ذلك.. فالإنسان من فطرة متقلّبة.. فما يعجبه اليوم قد يغضبه في الغد.. وما يكرهه بالأمس قد يسرّه اليوم.. وكما قيل..

أعجبني فأقبلت نحوه...

ولما اقتربت منه ما سررت...

عجباً على نفسي فإنها...

تهوى دوما ما لا يعجب...

ومن هنا كثيراً ما نرى حولنا من الأمور ما يعجبنا ونقنع بجماله.. فننصح به.. وندعو إليه.. وإن كنّا من داخلنا غير قادرين على التّمثّل به.. ونستمر متخفّين تحت أحجبة حمراء وبيضاء وسوداء.. لكننا نجهل أن ما في النفوس يُحفر في القلوب.. وما في القلوب لا تخفيه العيون!

فسرعان ما نقف أمام المرآة لنرى نوايانا عبر عيوننا.. ونكتشف قبح ما نخفيه خلف جمال ما نبديه..

هكذا كانت تدور أحداث قصة أحببت أوّلها وكرهت آخرها...

عشت دوما مع والديّ.. جمعتنا روابط الألفة الأسريّة والمحبة والتسامح..

ومضى العمر بي وبنا جميعاً.. وجرى الوقت.. وهبّت عليّ المراهقة هبوب الريح.. ولم أقوَ على احتمالها.. فغيّرت حياتي وكياني..

كنت دائما أرى في أمي مثالاً عظيماً.. أقدّره.. وأحترمه.. وأفخر به.. فكانت لي دائماً المثل الأعلى في كل أمور حياتي.. وخاصة الأمور التي تمسّ المرأة..

أعجبتني.. وكذلك كانت دوماً تعجبني جميع خصالها.. من الحشمة والعفاف.. الدّعة والحنان.. العطف والإحسان.. الصدق والوفاء.. الحلم والاخلاص.. نقاء السريرة ولباقة اللسان.. وفوق ذلك كله.. العلم والإيمان والتقوى المغروزة في قلبها.. إذ كانت هي مثالاً لا عوض عنه.. فرأيت فيها ما يصعب أن نراه في الكثيرات مهما حاولن.. فقد كانت أمي حقاً امرأة إصلاحٍ ودين..

وكثيراً ما تمنّيت أن أكون مثلها ولو حتى جزءا منها.. فقد كنت أقتدي بها في كل أموري.. وأضرب بها الامثال دوماً.. وأدعو صديقاتي بأن يكن مثلها..

ومع مرور الوقت أصبحت جزءا منها.. لأنّي أردت ذلك.. فقد أعجبني كثيراً أن أكون كذلك.. فأصبحت مثالاً لصديقاتي وقريباتي.. أنصحهن.. وأدعوهن.. ولم أفكر يوماً بالانصراف لأي أمر يغضب

الرّب.. وذلك كان أكثر ما لا يعجبني..

ومضى الوقت..

حينها كنت قد بلغت العشرين من عمري.. عندما وصلتني رسالة تقول: "إليك.. إلى الزهرة الندية التي أراها في منامي.. والجنّة الوردية التي أحلم بأن أجد بها سعادتي.. والعطر الآخاذ الذي أرشّه على صبابتي.. من كعبي إلى عمامتي.. ووردة الفجر التي أرى فتوحها الذي يشق جوفي من عبيره وسناه النضير..

فيا فالقة مشاعري وخواطري الزهرية.. من نبضات قلبي الحزين.. فملكتها.. فخفّفت لمساتها الساحرة جوهرة هذه الآلام.. فجعلتها بين شرايين حبّها جرعات سمٍّ هاريٍّ لا يميت.. ويا مالكة عمري المديد إلى ما لا منتهى.. لا تحيد.. ولا تواسي قاتل حبٍّ.. دافن قلب حزين.. بين صفحات عالم ظلم.. أو أحضان تربة حب لا تريد..

إليك.. يا من لا أدري متى سيجمعني بك الزمان بين أحضان دهره.. نحلتين اثنتين تشربان من نفس الرحيق.. أو زهرتين اثنتين تتقاسمان أملاح الحب..

إليك.. يا قاطنة فردوس الأرض.. يا من لا أدري متى الملتقى الذي سيجمعني بك.. أمام العالم.. ليشهد جماع الروحين كلّ حيّ يعيش.. ويحضر حلمي الجميع.. وأنادي بأعلى صوتي قائلاً.. أحبك.. أحبك إلى ما لا منتهى.. وحتى لقاء تربة الموت.. فهل تراك

سترسلين لي من تربة حبك القليل؟!!"

كانت تلك أوّل رسالة غراميّة استلمتها في حياتي.. أوّل كتابةٍ هزّت عواطفي.. وتلتها الكثير مثلها.. فوجدت وقع نبضاتي يزداد يوماً بعد يوم.. ووجدت قلبي يتوق اليوم تلو الآخر لقراءة المزيد.. حتى وقعت وقع الفريسة في الأسر.. وما كان ذلك وبعمري ليعجبني..

أحببته.. كما يقال في قصائد الشعر.. كلّمته وراسلته وقابلته.. مع أنّي كنت القدوة والداعية للإصلاح.. وظللت كذلك!

فحتى بعد محادثتي ومقابلتي له بالخفاء.. كنت أدعو صديقاتي أن يمتنعن عن مثل تلك الأمور.. لأنّي كنت أعلم بمدى القبح الذي تخفيه وراء حسنها.. ولأنها لم تعجبني يوماً.. لكن نفسي وما سوّلت إليه..

وبعد مضيّ حوالي السنتين.. تقدّم شاب كفء لخطبتي.. ولم يمنعني ذلك الشعور الزائف من القبول.. ولبّيت أمر والديّ بالزواج ولم اعترض.. لأني كما يقول الجميع.. المثل الأعلى والقدوة الحسنة..

وتمّت الخطوبة.. وتلاها الزواج بعد أيام معدودة.. ومضى الوقت بسرعة.. وأنجبت طفلة جميلة ملأت حياتنا بالمزيد من السعادة والسرور..

ومضت السنوات...

عشت فيها مع زوجي وابنتي أحلى لحظات حياتي.. لحظاتٍ أنستني كل ما مضى.. وظللت بنظر الجميع أنا كما أنا القدوة الصالحة.. بل وأصبحت أيضاً كما يقال الأم المثالية.. وحمدت ربي على كل حال..

في البداية خفت على ابنتي كثيراً.. مع أنها الأخرى كانت مثالية.. وتخشى الله وتراعي رقابته في كل أعمالها.. ولكن الخوف ظلّ مزروعاً بداخلي.. بسبب ما لا أقوى على نسيانه.. فكانت صورتي المنافقة أمام نفسي والناس لا تبتعد عن ناظري.. فقد كنت أنصح وأنا أمارس الخطأ.. أدعو وأنا بأمس الحاجة للدعاء.. لذلك لم أكن قادرة على تصديق ابنتي والثقة بتقواها.. لأني خشيت أنها تلعب نفس الدور الذي لعبته أنا من قبل..

وبقيت مراراً وتكراراً أسأل نفسي.. لم اخطأت وأنا أدرك معنى الخطأ.. لم كنت يوماً في غاية القبح وأنا أعرف شكل الجمال.. فكنت ألقى الجواب نفسه..

لم يعجبني يوماً أن أكون ذلك.. لكن ذلك لم يمنعني من تجربة أن أكون كذلك.. فاقتربت من القبح لأكونه.. وما إن أعجبني حتى واصلت قبحاً فيه.. وبقيت محتارة.. كيف يعجبني ذلك وأنا أكثر من لا يعجبه ذلك.. بل غير ذلك.. إنه لممارسة ذلك القبح.. اضطررت

للكذب على نفسي بمنافقة الناس.. بإدّعاء البراءة.. بتمثيل الطهارة.. بارتياد منبر الإصلاح والتوجيه.. بامتثال دور الداعي إلى الصلاح.. غير خيانة زوجي بإخفاء كلّ ذلك القبح.. فبذلك ما اكتفيت بجرح نفسه وكرامته.. بل جرحت نفسي وكرامتي بانتهاك حرمة ديني الذي حملت اسمه دون أن استحق.. فقد كنت أتغنى به أينما أحل.. وكذلك مازالت أفعل.. ولكن بصوت ليس بحقيقي..

فعلت ما أعجبني كله.. عملت كل ما يغضب الرّب بإتقان.. وبقيت صامدةً صامتة.. لأن الفضيحة كانت لا تعجبني.. وأمامها أعجبني النفاق اكثر..

ومضت الأيام ...

تعرضت ابنتي لحادث وخيم.. نقلت للمستشفى.. فهرولنا جميعا خوفاً وذعراً.. رأيتها والدماء تسيل من جسدها.. كانت تصارع الموت كما لو كان أمامها..

أحسست لحظتها أنّ الله يريد أن يريني عاقبة أمري.. وأدركت كم كنت خائنة في قرارة نفسي.. بالرغم من إلمامي بكافة أمور الدين.. وقتها اشتعلت الحسرة بداخلي.. فما أعجبني ما تذكّرته من محض الخيال.. بل لم يكن أيّ شيء حولي يحوز إعجابي.. فأقسمت أن أسلّم أمري.. واعترف وأصحح إيماني بعد سلامة ابنتي.. ولكن للأسف كان الوقت قد تأخّر..

نادى صائح من غرفة العمليات.. نحن بحاجة إلى المزيد من الدم.. والمخازن تنقصها من هذه الفصيلة وقد يتأخر أمر جلبها.. فهلاّ تبرع أحد الوالدين بالدم؟!!

وما إن أكمل حديثه حتى هرول زوجي للتبرع.. بينما ظللت أنا واقفة لبعض الوقت.. وكأنّي فقدت الإحساس بالوجود.. لا أدري لم شعرت بأن ابنتي سترفض دمي.. شعرت بأنّ طهارتها ستأبى الحياة بدم ملوّث.. فكيف للجمال أن يحيا على هواء يحمله دم قبيح؟!.. شعرت بالخوف.. ولكنّي دخلت مسلّمةً أمري للواحد الحكيم..

دخلنا غرفة العمليات.. واغمضنا عينينا.. ولكن لم نفتحها جميعا.. فللاسف لم تكن فصيلة دمي أو فصيلة دم زوجي مطابقة لفصيلة دم ابنتنا.. او ابنتي وحدي بالأصح!

هناك كشف الله أمري.. وانقلبت على عقبي بفعل يداي.. خسرت ابنتي.. ومن ثم زوجي الذي سرعان ما باشر باجراءات الطلاق.. وأصبحت بعدها مضغة للجميع..

وبعد نيّف من العمر.. بدأت أضحك على نفسي.. أضحك على مراحل الحياة.. أضحك على الوقت.. وأعود لأتساءل.. كيف فعلت ذلك يوماً..؟ كيف أعجبني في يومٍ من الأيام فعلٌ قبيح.. ولم تأخّرت في إدراك كونه لا يعجبني.. حتى فات الآوان ولقيت من الله فعلاً شيئاً أعجبني.. وهو عقاب لي ولأمثالي.. ودرس كي لا أفكّر فيما

يعجبني أو لا يعجبني.. بل أعمل ما يعجب الرّب ويرضيه.. لأنّه هو ملك الجمال وسيّد الكون..

وأمسيت أنا تلك التي كانت إمرأة إصلاح وديـن.. امرأة تبحث لنفسها الاقوال.. وتختلق الأعذار.. لتبرر ما صار.. وما إن سألني أحد عن حياتي حتى بدأت القصّة قائلة:

"لم يكن يعجبني.. ولكن...؟!"

الرهان

ما بقي رهان.. وما بقيت حياة..

كان الوقت متأخراً من الليل، حيث اعتادت العائلة على المغادرة إلى الفراش في وقت مبكر، ولا يخفى سر كونها عائلة صغيرة من أب وأم وشابة في مقتبل العمر.

ولم تكن ليلة مميزة عن غيرها في ظلمتها ووحشتها حتى رن جرس الهاتف وأهل البيت كلهم نيام..

استيقظت الأم بعد استماعها لصيحات طويلة وصل دويها إلى غرفة الوالدين في الطابق الثاني، حاولت الإسراع الى الهاتف في الأسفل مع أن النعاس جعلها تتباطأ حتى وصلت إلى الهاتف.

. ألو..

. ألو، مساء الخير..

. نعم.

. هل هذا منزل فلان؟

. نعم، منزله.. خيراً.

. قولي له أن يسرع، إن ابنته في المستشفي الفلاني!

. ماذا؟

. ابنته في المستشفى!!

. إن ابنتي نائمة في غرفتها، لقد أخطأت الرقم!

قالت الأم ذلك، وأغلقت سمّاعة الهاتف في وجه المتصل، قائلة لنفسها "تباً لهؤلاء المزعجين، الذين لا يملكون حياءً ولا ديناً لكن حبل أفكارها انقطع بصيحات أخرى من الهاتف، فاضطرت الأم على الرد عليه من جديد وهي غاضبة.

. ألو..

. مساء الخير..

. ماذا تريد؟!

. هل هذا بيت فلان؟!

. نعم، هذا بيته، ماذا تريد؟!

. أنا الضابط المناوب، أخبريه أن يسرع إلى المستشفى إن ابنتكم عندنا!

. قلت لك إن ابنتي نائمة في غرفتها فال الله ولا فالك، لقد أخطأت الرقم!!

قالت الأم ذلك مضطربة، علاها الغضب، لكنها في الوقت نفسه شعرت بالرهبة، فلقد كان الرجل جاداً ولم يكن في نبرة صوته سخف المزعجين.

صعدت الأم إلي الطابق الثاني، وتوجّهت أولاً إلى غرفة ابنتها لتطمئن عليها، فلم يكن الاستماع إلى تلك الجمل المتقطّعة في الهاتف بالأمر السهل!

وصلت الأم إلى الغرفة، حاولت فتح الباب، فوجدته مقفلاً من الداخل، طرقته مرة واثنتين لكن دون جواب، ضربت الباب بشدّة وهي تنادي ابنتها لكن لا جواب، شعرت الأم بالخوف الشديد فأسرعت إلى غرفتها توقظ زوجها "يا أبا فلانة، يا أبا فلانة الحق بي!"

استيقظ الوالد على رهبةٍ وفزعٍ قائلاً "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ما بكِ يا امرأة أفزعتني!" فأخبرته الأم بأن ابنته لا تجيب من غرفتها، وأنها حصلت على مكالمة من المستشفى تسأل عنه..

أسرع الوالد إلى غرفة ابنته، وأصبح يضرب الباب ويضربه وينادي باسم ابنته ولكنها لا ترد، فقال الوالد لزوجته "لعل المتصل كان يقصدنا بالفعل!" فأجابت الأم باكية مستنكرة "لكنني ودعتها بنفسي في الفراش!" فلم يكن لهما للتأكّد غير كسر الباب!

أسرع الوالد بالبحث على ما يساعده على كسر باب الغرفة، وأصبح يحاول جاهداً حتى كسره واكتشف المصيبة، الفتاة ليست في غرفتها!!

أخبرت الأم الوالد عن اسم المستشفى الذي ذكره من ادعى أنه الضابط المناوب، فانطلقا إلى هناك، وسأل الوالد هناك عن ابنته، وأخبرهم بأنهم اتصلوا به، فعرفوه، ودلّه أحدهم على المكان المناسب، فتوجّه الرجل وزوجته إلى الغرفة المعنية، وهناك قابلهما الضابط المناوب عند بابها قائلا: "أنا آسف.. لقد توفّيت ابنتكم!"

صرخ الوالدان من هول المفاجأة وبدأت الام النحيب، بينما بدأ الوالد بالصراخ والسؤال "ماذا؟ كيف حصل ذلك؟! كيف وصلت ابنتي إلى هنا! كيف ماتت؟ أين ماتت؟!" وكم كان الأمر مؤلماً أن يعرف كيف ماتت بعدما علم بأنها قد ماتت.

بدأ الضابط المناوب بسرد تفاصيل القصة المفجعة..

كان مجموعة من الشباب المراهقين يقضون سهراتهم المسائية في منزل أحد الشباب، حيث اعتادوا ذلك كل يوم، فقد كان ذلك الشاب صاحب مال ولوالده الكثير من الممتلكات، ومنها تلك الفيلا غير المأهولة، والتي سمح لابنه باستقبال أصدقائه فيها متى شاء، فكانوا يجتمعون مع بعضهم كل مساء يتبادلون أحاديث الشباب، ويشربون أباريق الشاي.. حتى جاءت تلك الليلة المشؤومة.

كان الشباب يتكلمون ويتفاخرون كل بصديقته أو صديقاته، جمالهن، شبابهن، ومالهن إلى ما شابه ذلك، حتى وقع بين الشباب التافهين رهان تافه، حيث قال صاحب الفيلا "أول من يجلب لنا في مجلسنا هذا في ليلتنا هذه صديقته له مكافأة".. وكانت المكافأة مبلغاً مغرياً من المال!

وبذلك اتصل كل واحد من الشباب بصديقته ليخبرها الحضور أو ليذهب لإحضارها، ومن هؤلاء التافهين كان صديق الفتاة المتوفاة، حيث اتصل بها وأخبرها قصة الرهان، فوافقت على الفور، فهي

الحبيبة المخلصة، وعليها أن تساعد حبيبها على الفوز بالجائزة، فهو فارس أحلامها، وهو من سيتزوجها، وما يسعده يسعدها.

استعدت الفتاة ووصل إليها حبيبها وأخذها بالقرب من منزلها، وأصبح يسوق سيارته بأقصى سرعة ممكنة حتى يكون الأول ويكسب الرهان، لكن القدر كان أسرع منه، فانقلبت السيارة بهما ومات هو قبلها، فما بقي رهان.. وما بقيت حياة..

لن يعيد التاريخ نفسه..!

هكذا كانت القصة.. بدأت بذاتٍ ذهّبت به إصبعها..
وانتهت بطفلةٍ نوّرت بها حياتي..

قال تعالى: "الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله"..

بهدي الله بدأت صفحات جديدة في حياتي، وطويت صفحات طويلة عشتها فعذّبت وتعذّبت، وفي النهاية ماذا جنيت؟!.. بقايا جروح...

أنا رجل لي من العمر ما يفوق الأربعين، أمارس بعض الأعمال الحرّة، ولي بيت جميل تسكنه زوجٌ عظيمة، ولي ثلاث دروع وزهرة جميلة.. ولنا تحت هذه الدار من الأحلام والضحكات والجلسات ما أدامه الله على كل دار عربية مسلمة..

تخرّجت من الدراسة التجارية، ودخلتُ الجامعة لدراسة إدارة الأعمال، فذاك الحلم كان يراودني منذ الطفولة، لكن قبل أن أحقق ذاك الحلم، دخل حياتي حلم جديد بدا لي أجمل! ألا وهو عينان سوداوان، سوادهما كالكحل وإن كانتا من دونه!

ففي السنة الآخيرة من الدراسة.. دَخَلَت الجامعة فتاة جميلة..

أدخلت معها في حياتي حلمًا جديدًا عن الحلم الذي اعتدت على رؤياه، وهو حلم الاقتران بها..! أحبها.. هكذا أحسست.. وإن لم أكن أعرف مسبقاً ما هي حقيقة الحب! عدا بعض نزوات المراهقة التي ما أحسبها كانت حبا! ومع التخرج تم الزفاف..

تقدمت لخطبتها فما أبدت ترددا، أهلها أناس قنوعون، وإن كانوا من الذين يولدون في فراش من ذهب، و يموتون فيه..

لكن ابنتهم مختلفة، فلا يكفيها الحياة والموت على ذاك الفراش، بل إنها لتريد أن تنسج لها سجادة من الذهب تحت قدميها أينما مضت.. هكذا كانت القصة، بدأت بخاتم ذهّبتُ به إصبعها، وانتهت بطفلة نوّرت بها حياتي..

كانت زوجتي تعلم بأني شاب متخرج للتو، صحيح أن عائلتي لها شأن جيد في التجارة.. ولعل هذا ما جعلها تقبل بي.. ألا أني أحب بناء نفسي بنفسي، دون اعتمادٍ على مال أبي حتى لو بدأت من الصفر..!

هكذا كنت دائماً منذ الصغر، ولعلّي ورثت ذلك عن أبي، نعم، تعجبني حياة أبي كثيرًا وقصة كفاحه، فهو من عائلة محترمة، لكنها

كانت فقيرة نسبياً، ألا أن أبي ووحده استطاع أن لا يبني نفسه فقط.. بل بنى معه عائلة عظيمة في المال والشأن، بجهدٍ طويل وصبرٍ عظيم وعملٍ متواصل..

منذ الصغر وأنا أحلم بأن أكون ذا شأن، لكن دون الاستناد لشأن أبي، ولا أعني بذلك أمرًا معيناً قد يكون بالمفهوم سيء، لا على العكس من ذلك، فأنا أحب أبي كثيراً وأحترمه ولا أرفض ماله أو مساعدته، بل ما أقصده هو أني أردت الفرصة لأثبت وجودي في هذا العالم..

وعلى كل حال كان لوالدي عظيم الأثر في حياتي ونجاحي، وحتى في تخصّصي، إذ أني لم أنجح بالتجارة إلا لأني ربيت معها.. فقد كان والدي يكثر من اصطحابي إلى شركته، فتعلّمت أمور الإدارة مبكراً، غير أني كنت أعمل أحيانًا معه بعد دوام الدراسة، أو حتى في الإجازات.

لم تكن زوجتي توافقني على هذا الأمر، وكانت تصرّ على أن أبني حياتي على حساب والدي، أي أن أستفيد من ماله وشأنه، لأنها كانت تعلم بأن بدايتي بدونه ستكون صعبة لي نوعًا ما، ولها كثيرًا، فما كانت سوى مدلّلة تحب لبس الحرير! ولكن هذا الأمر لم يكن

بالمشكلة الكبيرة، وإن كان الزوج يحب في زوجته تفكيراً موافقاً له، فتكون له سندًا ولأحلامه سلّمًا لا عقبة!

مضى الوقت ولم تكن الأمور سيئة، وأنجبنا طفلة ملأت لنا الحياة ضحكات وسروراً.. وكانت حياتنا متواضعة، لأني أحببت أن تكون كذلك، وإن كان لدينا مال يكفي لبناء القصور..

ويوماً، ونحن نخطط لمستقبل ابنتنا تكلمنا عن دراستها، فأصرّت زوجتي على فكرة إدخالها مدرسة خاصة، وبالدور أصررت أنا على إدخالها مدرسة حكومية، فقالت زوجتي غاضبة: إنك لتبخل على الطفلة بالعلم كما بخلت عليّ من قبل بالرفاهية!

فقلت لها: يا امرأة، ما أنا بالرجل العنود ولا بالزوج البخيل، فوالله لو كان الأمر في مجال المناقشة ما أصررت، قد تختلف تربية أهلكِ عن تربية أهلي، فنحن أناس ربينا على عادات وتقاليد أحببناها بل آمنّا بها، لذا فهي تسري في عروقنا، فأنا لا أبخل على طفلتي بالعلم وأنّى لي ذلك! بل إني لأَغار على دينها، فتلك المدارس الخاصة تثقّف أبناءنا بثقافة غربيّة، وعاداتٍ غربية أخاف على ابنتي منها، فوالله لو قَصُرَ على ابنتي علمٌ في المدرسة، لجلبت لها العلم في دارها!

فأجابت: هكذا أنت مُذ عرفتك، يكثر حديثك ويقل فعلك! فأتبعتُ: يا امرأة، إن كنت حرمتك سكن قصر كبير، أو ركوب سيارة طويلة، أو لبس ثوبٍ مرصّعٍ بالذهب، ما فعلت ذلك لأن بي بخل، بل لأني أحمل في داخلي قناعة بجمال حالنا عن ذلك الحال، ولأني خشيت عليك وعليّ من أن تزداد تلك المظاهر، فتسحبنا خطوة خطوة عن أمور ديننا..

فأجابت تاركةً مجلسها: والله إني لأخشى أن تنطبق علينا هذه الدار يوماً بسبب قناعتك تلك وتفكيرك هذا!..

هكذا كانت معظم نقاشاتنا، فقد كانت زوجتي بعيدة نسبيًا عن أمور الدين، ومع الوقت كانت حالنا تزداد سوءا حتى بدأنا نتشاجر على الصغيرة فالكبيرة..

قد يحسب البعض بذلك أني رجل عنيد ومتخلّف، لكن ما كان ذلك حالي يوماً، على العكس تماماً، فأنا شخصٌ متسامح أحب المناقشة والاستماع لآراء الآخرين، ومتى كانت زوجتي على حق تنازلت عن رأيي بسرور إن لم يتعلق الأمر بمبادئي والتقاليد التي ربيت عليها، غير ذلك فأنا رجل مسالم، لا أحب الصراخ والشجار.. لكن فليسامحها الله.. ومع بعض الشهور تم الطلاق..

دخلت الكثير من الظلمة إلى حياتي، خاصة لكوني عاطفيّاً بعض الشيء، غير ذلك أقولها وبصدق مع كل عيوبها كنت أحبها، وأيام الجامعة تلك حيث وجدتها كانت أياماً لا تنسى!

أحدث الطلاق هزّة عظيمة في حياتي وفي أعمالي التي كادت أن تنتكس، لولا أن ضممتها لأعمال أبي كي تسندها، فتلك الأخرى كانت هزّة في مبادئي.. اعتزلت الناس، بل أحسست أنّي كرهتهم، نعم أذكر تماماً أنّي كنت أرى كل شيء حولي كريهاً، الناس، الشوارع، الطعام، بل حتى بيتي الذي كنت أسكنه، فبعته وغيّرت سكني، ومن ثم أقسمت على عدم الزواج من جديد..

وبعد أشهر اعتدلت الأمور.. إذ سكنت أنا وابنتي بيتاً جميلاً في غير حيّنا السابق، وقلّلت ساعات عملي إلى النصف تماماً، فكنت أعمل في الصباح فقط وقتما تكون ابنتي في المدرسة، وأعود معها إلى المنزل، ولا أفارقه أبدًا بدونها، إذ ما كنت يوماً لأفكر بأن تربّي ابنتي مربّية!

أعطيت ابنتي كل شيء.. حنان الأم وعطف الأب وحب

الأصدقاء، فكنت أصحبها من حين لحين إلى الحدائق، وأجلب صديقاتها الصغيرات إلى المنزل ليلعبن معها، ومتى ضاقت الظروف بي صحبتها لدار أمي لبعض الوقت.. لكن مع كل ذلك الحب وتلك الرعاية، كانت تنقصها أمور ما كنت بقادر على سدها!

بعد طلاقي لزوجتي ظلّت ابنتي معي، لكني كنت أصحبها لأمها من حين لآخر، حتى تزوّجت طليقتي رجلاً صحبها إلى بلاد غريبة وإلى الأبد، حتى أهلها انتقلوا بتجارتهم للعيش في بلاد ثانية، فلم يكن من المتوقع أن تأتي المرأة لزيارة ابنتها من وقت قريب لآخر..!

كانت ابنتي حينها في السادسة من عمرها، كنت أراها تكبر أمامي، طفلة بريئة، تحمل من الدعة والحنان الكثير، لكني كنت أرى دائماً في عينيها تساؤلات عن أمها، وفي داخلها ألماً لا أفهمه، وكنت أسأل نفسي دائما "ألا يمكن أن أصبح لها أمّاً يوماً؟!"

وجاءت أيام.. كانت الطفلة تكثر فيها السؤال عن والدتها، وإن كانت ستعود، فكنت أجيبها دائماً لأضعها أمام الأمر الواقع، بأنها لن تأتي للعيش معنا من جديد، وأنّي أنا فقط هو كل ما تملك..

كانت طفلتي ترقد معي كل يوم، إذ كنت أعتني بها تماماً كما لو كنت أمها، فأحمّمها وألبسها، وأرتّب شعرها وأطعمها، وأصحبها للمدرسة.. وكل شيء.. لكن.. لماذا حتى وهي نائمة كانت تردد باستمرار كلمة "ماما"؟ فكنت أحترق ألماً، فأحتضنها قائلا: أنا ماما يا حبيبتي!

بدأت قضية "الماما" هذه تضايقني كثيراً، بل إني أحيانًا كنت أضعف لدرجة أن أنتحي جانباً من المنزل وأبكي فيه، فما عدت قادراً على الاستمرار في تمثيل دور الأم، لأنه كما كان يبدو بأني لن أنجح فيه أبدا!

وفي بعض الأيام، وجدت بعض التغيير في حياة الطفلة، وكأن بعض الابتسامات الصادقة كانت ترتسم على وجهها البريء، وبعض القَنَاعات الصغيرة في عينيها، فحسبتها نسيت فكرة أمها، وأني قد نجحت كأم، فسألتها يومًا والسعادة تغمرني: ما بال الأميرة سعيدة هذه الأيام؟ فقالت وهي تتراقص من السعادة: ألم أخبرك بابا.. لقد أصبحت لي أم!

تفاجأت من قولها، فكأنّي أقرأ سعادتها تلك من عينيها، أو كأنها تعلم بما أفكّر بقلبها، فاحتضنتها قائلاً: ومن أمك يا حلوة؟ إذ أني

توقّعت أن تقول "أنت يا بابا!" لكن ردّة فعلها كانت مختلفة، إذ أمسكت بيدي تجرها وتجرّني معها إلى فناء المنزل، وأشارت إلى هرّة كبيرة كانت ترضع أطفالها من حولها، قائلةً بسرور: هذه أمي يا أبي!

في ذلك اليوم أصابني ألم ما شعرته في حياتي قط، إذ ما إن أَكمَلَت صغيرتي تلك الجملة، حتى شعرت وكأن حساماً اخترق قلبي، أو كأن أنفاسي انحبست بداخلي فكدت بها أن أختنق، أو شعور لا أستطيع وصفه أو تمثيله بآخر..!

عندها فقط فهمت لماذا أحيانًا كانت تختفي من حولي، فلا أجدها إلا مع تلك القطط التي أحضرتها لتلعب معها، ولِمَ كنت كثيراً ما أجدها تأكل أو تنام بقربهم، إذ كانت ابنتي أنا تعوّض حنان الأم الذي فقدته بحنان قطة! وأنا كالأحمق غافل عما يجول في خلدها!

كم من المؤلم أن تقول ابنة حبيبةٌ لوالدها مثل ذاك القول، إذ أنّي يومها قضيت الليل بالبكاء متخيلاً سعادتها وتراقصها ذاك، قولها وإشارتها تلك، وكلمة أبي التي لن تتحول إلى أمي أبدا.. وكذلك قضيت باقي الليالي.. وبعد عناءٍ عظيم في التفكير، اقتنعت أخيرًا بإحضار أمٍ لها وليس قطة..!

تزوّجت من امرأة عظيمة أحبّتها كابنة لها، وعوضتنا عن كل الحنان الذي فقدته هي والذي فقدْتهُ أنا الآخر! وبعد سنة أنجبت زوجتي طفلة أخرى لي، وأختاً جديدة لحلوتي، لكن الطفلة الجديدة أصبحت شريكة ابنتي الأولى في الحنان..! لا أدري.. شعرت وكأن زوجتي بدأت تقل من اهتمامها بابنتي، ولعلّي في ذلك مخطئ، صحيح أنّي لم أجرّب معنى زوجة الأب، لكن معنى ذلك معروف لدى الجميع..!

ويوم.. وأنا في عملي.. يرنّ جرس الهاتف.. فأرفعه فأسمع "إلحقني يا فلان! لقد دهست سيارة ابنتك!"..

غفلت زوجتي المشغولة بابنتها الجديدة عن ابنتي قليلاً.. فخَرَجَت خلف هرّتها إلى الشارع.. فدهستها سيارة فحطمت عظامها الناعمة.. فقتلتها..

شهرٌ كامل لم تفارقني فيه الدمعة لحظة واحدة، تركت عملي تماماً، وداري طردت منها زوجتي وابنتها، إذ أني قرّرت طلاقها، فما كان ذلك ليحصل لو لم أتزوّج وبقيت أنا لرعايتها ومراقبتها، فلو كانت زوجتي مهتمةً لأمرها لما غَفلَتْ عنها، فزوجة الأب تبقى زوجة للأب لا أمًّا أبدا.. فما أن رزقها الله بطفلة لها.. حتى حرمتني طفلتي..

هكذا رأيت الأمر..

بقيت وحدي أبكي الليل والنهار، خسرت حبي أولاً، وحياتي كلها ثانياً، إذ لا أعرف كيف أصف ما كانت لي ابنتي تلك! بل إني لأقسم بأني لا أستطيع الوصف أو التمثيل، إذ كانت لي الأمل، بعد أمها كرست حياتي كلها كي لا أرى دمعةً في عينها، حرمتُ نفسي الزواج وأنا بحاجة إليه كي لا أحضر لها زوجة أب، وإن تزوّجت أيضًا لأجلها، فضحكتها لي كانت الحياة نفسها، وابتسامتها كانت لي أنفاسٌ لحياة ما عدت لأُطيقها بعدها أبداً..

وعادت الذكريات من الطفولة حتى الشباب، فحتى الزواج ومن ثم الطلاق، وما أنا عليه الآن تلاحقني، وبقيت أقلّب الأفكار وأقلبها حزنًا وتوجعًا.. وبعد ثلاثة أشهر على الفاجعة، حيث كانت زوجتي تنتظر ورقة الطلاق، ذهبت إلى دارها واصطحبتها وابنتي إلى المنزل من جديد.. وكأن أمرًا ما حصل..

وبعد عدة أيام سألتني زوجتي عن ذلك، فأجبتها وبصدق قائلاً: هناك أمور في النفس الإنسانية يصعب فهمها، وعلى المرء منّا أن يراجع نفسه وحساباته دائماً، فلعل ذلك كلّه كان درساً من الله لنا

جميعاً وتذكيراً، طلاقي الأول كانت زوجتي الأولى هي المُلامة فيه دائماً والمسؤولة عنه في نظري، مع أني مع مراجعة نفسي أعتقد بأني لو كنت متفهماً أكثر لتفكيرها، ومتنازلاً قليلاً عمّا كنت أسمّيه مبادئي لما حصل ذلك الطلاق!

رفضتُ تفكيرها دائماً ناسياً بأنها تربّت على ذلك، ورَفَضَت الأخرى تفكيري دائماً دون أن تحاول فهمه، مع أننا الاثنين لو حاولنا اقتسام أفكارنا ما كنا لنخسر بعضنا..

حبّي الزائد وخوفي العظيم على ابنتي، جعلها تحيا في ألم فراق كلمة "ماما" لأمدٍ طويل لها، إذ ما كنت لأفهم حاجتها الفطرية للأم وأصررت على أن أكون أنا أمها، وقناعتي بأن زوجة الأب تبقى كذلك ولا يمكن أن تصبح أما جعلني أحرق قلب ابنتي من قبل، واليوم أحرق قلبك الآخر، فأجعلك المسؤولة عن موتها مع أن ما جرى كان قضاء وقدر، وبالرغم من أنّي رأيت تماماً كيف أنك بدّلتِ حياتنا وأحطتِنا بالحب والحنان!

ولما حادثتني يوم الحادثة قلت: فلان ابنتك! فشعرت حينها بأنك لست أمها! لذلك حصل ما حصل، فازددت غيظاً، فطردتك قائلاً: أخرجي وابنتكِ! وكأن تلك ليست بابنتي الأخرى!

يا فلانة، لقد دارت في مخيّلتي كل تلك الأمور، فأدركت بأن هناك

أموراً نفكّر بها حيث لا حاجة لذلك التفكير، ونغفل عن أخرى قد تحتاج إلى الكثير منه، فننسى بأنه بين الأسباب والمسببات هناك موجودات أهم بكثير، لأنها أرواحٌ تدبّ فيها الحياة، وإني بطلاقك لن أجعل التاريخ يعيد نفسه، فتأتي ابنتي هذه يوماً، مشيرةً إلى هرةٍ ترضع أطفالها، فتسألني: أبتاه أريد أما كهذه!...

خوفاً من الفضيحة!

مكان لا يسمع فيه صوت.. ولكن تؤخذ فيه صورة!

في أحد الأيام، وبينما كنت عائداً إلى منزلي من العمل، تعطلّت سيارتي على الطريق المؤدي إلى المنزل، وكانت الساعة وقتها متأخرة بعد منتصف الليل، وكنت على شارع رئيسي طويل يصعب أن أحصل فيه على المساعدة، مما اضطرني إلى التفكير في "تاكسي"!

نزلت من السيارة بعد أن أقفلتها وتركت أمرها حتى الصباح، وجلست على صندوقها في انتظار سيارة، لكنني شعرت بأنني لوجلست كذلك سأبقى جالساً حتى الصباح، لذلك قرّرت السير على طول الشارع حتى أصل إلى تقاطعه مع شارع آخر، علّني هناك أجد سيارة أو تاكسي.

بقيت ماشياً على طول الشارع، حتى وصلت إلى ملتقى طرق أخذت يمينه، حيث توجد هناك محطة قد أجد عندها سيارة تقلّني، وفعلاً وجدت سيارة أجرة يقودها شاب آسيويّ الجنسية، فركبت معه.

كنت هادئاً، فقد خرجت من عملي للتو، ومشيت مسافة جيدة، لذا غلبني التعب، لكن سائق التاكسي كان يتكلم كثيراً.

بدأ السائق يسألني عن أمور وكنت أجيبه، حتى سألني عن راتبي، وعندما أخبرته عن راتبي قال: لو كنت أحصل على راتبك هذا لتركت

الديار وعدت الى بلدي!

استغربت حديثه ذلك وانتابني الفضول لأسأله عن مردوده، فأجابني بمبلغ ضخم من المال، فضحكت بعفوية قائلاً: وكيف لسيارة أجرة أن تجمع كل هذا المال؟! فقال: عزيزي، إذا أردت جمع المال عليك البحث عن الأعمال المثرية! فسألته: وهل سياقة التاكسي عمل مثري؟! فأجاب ضاحكاً: بل الخمر والحشيش والبنات!

بدأ حديثه يزداد تشويقا، فسألته: وهل تتاجر أنت بهؤلاء الثلاثة؟! فقال: طبعا! فاجبته: وكيف أصدّقك؟ وما كان لي أن أقول ذلك حتى أخرج لي "البوماً" كان يخفيه تحت مقعده، وقال: أنظر وتمتّع واختر!

وما أن فتحت الألبوم حتى وجدت صوراً لفتيات جميلات عاريات، لفتت نظري واحدة كانت الأجمل، فسألته: هل هؤلاء من بنات بلدنا؟ فقال: نعم معظمهن! فقلت له مشيراً على تلك التي كانت الأجمل: أريد هذه!

وما انتهت الرحلة إلاّ وكنا قد تساومنا على سعر الليلة مع تلك الفتاة، وحدّدت له المكان الذي أريده أن يجلبها لي فيه!

في الحقيقة، لم تكن تلك مغامرتي الأولى، لكن الجديد فيها أنها كانت من بنات بلدي، ولعل الآسيويّ قد أدرك ذلك بسرعة من حواري السريع معه، وإلاّ لما وثق بي بهذه السرعة، وأعلمني بتجارته ومشاريعه..

مساء اليوم التالي، وصل سائق التاكسي مع الفتاة إلى منزلي، حيث كانت عائلتي مسافرة، مما سهل عليّ ترتيب الوضع!

دخلت الفتاة وجلست، وفي البداية بدأت أتأمل جمالها وأحادثها، لكن لا أدري لماذا أحسست بأنها مغصوبة ومجبورة، فقد كانت هادئة وتبدو من عائلة محترمة وثريّة، وعندما سألتها ما بها قالت: خلّصني بسرعة أرجوك أريد العودة إلى المنزل!

استغربت أمرها، ونسيت كل ما يتعلق بالجنس، وبدأت افكر في قصة هذه الفتاة، وخاصة أنها لم تخلع حتى عباءتها! فبدأت الحديث: لا تبدين من عائلة محتاجة، وتبدين بنت ناس، وأشعر بأنك كارهة لهذا الشيء، فما الذي يدفعك لهذا إذن؟! بدأت ملامح الفتاة تتغير، بدت شاحبة وكأنها ستبدأ البكاء، فواصلت حديثي: أنا أشعر بأنك تخفين سراً، أخبريني ما هي قصتك لعلّني أفهمك أو أساعدك!

بدأت نظرات الفتاة تبدو أكثر هدوءا، وشعرت بأنها ارتاحت قليلاً لي أو كأنها أرادت أن تتكلم، لكن الخوف كان واضحاً عليها، ولم تمر ثوان من ذلك حتى وجدت الفتاة ترمي بنفسها في حجري وتبدأ بالبكاء بصوت مسموع وبشدة، حتى كدت أبدأ أنا أيضا البكاء لشدّة تأثري بالموقف! بعد ذلك اعتدلت الفتاة وبدأت تسرد لي قصتها..

أنا متزوجة من سنة ونصف تقريباً، زوجي يعمل ضابطاً، وفي يوم ما عندما كان في عمله، خرجت إلى السوق بمفردي لأتبضّع، ولما

شئت العودة إلى المنزل، كنت قد تعبت من كثرة السير، فقرّرت العودة بسيارة أجرة، فوجدت سيارة صاحبنا الآسيويّ الذي توقف لإيصالي، ركبت السيارة ولم تمض دقائق معدودة لركوبي حتى وجدت نفسي في مكان غريب، على سرير، عارية، ووجدت السائق الآسيويّ ومعه آخر هناك معي في الغرفة، وكانا قد فعلا فعلتهما الشنعاء بي..!

قمت وأنا أصرخ وأولول، فارتديت ملابسي وأنا أبكي وأشتمه، ألا أنه زاد مصيبتي عندما أراني صوراً لي معهما في أوضاع شنيعة، وأصبح يهدّدني بها قائلاً: كفّي عن البكاء والصراخ فسأعيدك إلى منزلك الآن!

وافقت على مضض، وجعلته يعيدني إلى منزلي وأنا أفكّر بزوجي وأمي وأبي وأخوتي وعائلتي، أفكّر بشرفي وسمعتي، ولم تتوقف الدموع من السيل لحظة واحدة..

عندما وصلنا أعطاني السائق رقم هاتفه وأجبرني على إعطائه رقم هاتفي، ومنها أصبح يهددني بإفشاء الأمر وإرسال الصور إلى زوجي وعائلتي متى ما رفضت أوامره، وعندما لا أجيب على هاتفه أو أغلق السمّاعة في وجهه، يرمي بإحدى صوري وأنا عارية تحت باب منزلي، مما جعلني أسير تحت رهن إشارته خوفاً من الفضيحة!

بعد انتهاء حديث الفتاة، فهمت كيف أن ذلك الرجل الحقير قد استغل هذه الفتاة وربما الكثيرين غيرها، ولم يكن مني إلاّ أن أقطع

عهداً على نفسي بمساعدتها، إذ انفجرت في داخلي شهامة الرجال، وشعرت بالغيرة والغضب لحال تلك المسكينة التي يمكن أن تصبح محلها إحدى بناتي أو أخواتي! وأعلنت توبتي وعاهدت نفسي على ترك هذا الطريق.

اتفقت مع الفتاة على خطة، وكانت قد وافقت على مضض، لأنها تخشى الفضيحة، فهي لا تريد خسارة زوجها وأهلها، لكنني أكدت لها بأن الأمر سيتم بسرّية تامة.

بعد يومين، اتصلت بسائق التاكسي الآسيويّ، وطلبت منه أن يحضر لي نفس الفتاة، ومعها بعض الخمر والحشيش، طبعاً بعدما وصفت له اللذة التي عشتها معها في المرّة الاولى!!

ولم يتأخر السائق حتى جاء مع الفتاة إلى مكان آخر كنت قد طلبت منه جلبها إليه، وما أن توقفت السيارة حتى ألقي القبض عليه وعلى الفتاة.

كنت قد اتفقت مع صديق لي أعرفه، وهو من أحد رجال الهيئة المعروفين بالنزاهة، اتفقت معه على إعطائه المعلومات اللازمة للقبض على السائق، على ألاّ يتعرض أحد للفتاة بأي سؤال أو استجواب، وأخذها من هناك إلى حيث ترغب، حتى لا يعرف أحد من هي، خاصة وأن زوجها ضابط!

وهناك في القسم بدأ التحقيق مع السائق، وكان جرمه واضحاً مع

الالبوم والخمر والحشيش، ومع بعض الضرب جاءت الاعترافات واضحة.

كان هذا السائق الحقير ينتمي لشبكة متكاملة للدعارة والتغرير بالنساء المسلمات وبيع الحشيش والخمور وإنتاجها.. ومن ذلك الخيط تم القبض على كثير من افراد تلك الشبكة، وخاصة سائقي التاكسي والذين كان معظمهم من نفس جنسية الأول.

ومما جاء في اعترافاتهم عن كيفية الإيقاع بالفتيات، أن يقوم السائق بعرض خدماته على الزبونة فيعطيها رقم هاتفه لتتصل عليه في أي وقت تشاء فيأتي ليقلّها، أو تتصل به متى ما أرادت أن يحضر لها أي شيء من السوق إلى بيتها، فبذلك يتحين الفرص، حتى تأتي الفرصة المناسبة ليدخل بيتها لإدخال الأغراض، فيغتصبها ويلتقط لها الصور العارية أساس هذه التجارة..

أما الطريقة الأكثر فاعلية وسرعة، هي ما إن تدخل الزبونة إلى سيارة الأجرة، حتى يقوم السائق بعد دقائق برشّها بمادة مخدّرة فتنام لتصحو في عالم لا يسمع لها فيه صوت.. ولكن ترى لها فيه صورة!!

المحتويات

الماضي العبوس	.....	9
لم يكن يعجبني.. ولكن..؟!	.....	21
الرهان	.....	33
لن يعيد التاريخ نفسه..!	.....	41
خوفاً من الفضيحة	.....	57
طفل بعد التخفيض	.....	65
الدموع الضائعة	.....	73
فراغ الأرقام المدمّر	.....	81
لحوم آدميّة للبيع	.....	89
لست ببنتٍ عاقة!	.....	97
المجرمون الأبرياء	.....	111
أنا لست برجل	.....	121
الدنانير القاتلة	.....	131

أقصى درجات الانحطاط 139
الخيار الوحيد 147
الشك 155
أتأكل الأم أبناءها؟!! 165
الثنائي اليائس 179
رأس الديك 187
الباب الخلفيّ 195